

قسطنطين زُرَيْقُ

لست أدعي أنني مؤهل للحديث عن رجل بأبعاد هذا الأُنسان العبقريّ . غير أن حظي و الظروف سمحت أن أعرفه عن قرب و لسنين طويلة . أولاً هو دمشقي و بقي دمشقياً كل حياته . لم تتغير لهجته القيمرانية . هل يمكن لدمشقي أن يخرج من جلده الدمشقي إلا ليموت . ثانياً كان و السيّدة نجلا من زمرة أصدقاء أهلي المقربين . يشكّلون مع بيت حلّيم و سعاد نجّار و بيت فايز و فيراً خوري و بيت وديع و هلن نعمان مجموعة تترافق دائماً . كان ذلك في نهاية الأربعينيات و بداية الخمسينيات من القرن العشرين . تتوسع الزمرة قليلاً فتشمل بيت وليام و نجبية نخمن و بيت عرفان و ناديا جلاّد و بيت رياض و نديدة ميداني و بيت ملك و سلمى العظمة . الصور التي تجمعهم في نشاطات مختلفة , خير برهان لهذه العلاقات الصديقة . لا نزال نحن أولادهم نتلاقى مخلّدين محبّتهم التي زرعوها فينا .

عندما طلب حسني الزعيم من قسطنطين بك أن يستلم رئاسة جامعة دمشق , طلب من أنسطاس بك أيضاً أن يكون عميداً لكلية طب الجامعة السورية . و كان ردّه المشهور للوالد الذي لفت نظره أنّ مسيحيين في هذين المركزين الحساسين قد لا يكون فكرة صائبة أجابه :

“ mon cher je m'en fous”

لكن قسطنطين بك لم يكمل فترة رئاسته للجامعة إذ مات السيّد "بنروز" رئيس الجامعة الأميركية و طلب منه أن يملأ المركز الشاغر , ففعل , إذ وجد في هذا الأنتقال من جو الجامعة السورية المتعب سياسياً , خلاصاً . كان هذا القرار مفصلياً في حياته . إن جو الجامعة الأميركية التي أصبح فيها أستاذاً للتاريخ بعد فترة الرئاسة بالوكالة , خير مكان لإنتاجه الفكري . صار بعد ذلك أستاذاً فخرياً للتاريخ .

Emeritus Professor

كان مكان والدي أثناء حياتي البيروتية , و عاملني كإبن له . أذكر أنني مرضت يوماً بالتيفوئيد و أصبت بالحمى و الرعشة المصاحبة و علم بمرضي فأخذني الى المصحّ

"الإنفيرماري" و ساعدني في لبس رداء النوم و وضعني في السرير و أوصى بي
المرضة و عادني يوميا حتى بعد ما جاء أهلي .

كانت بناته الأربع تحملن كثيرا من صفات الجدّ و الأنجاز في التحصيل العلمي . لم
تتزوج منهن إلا حنان . إلهام توفيت قبل وقتها , و عفاف تعيش في نيو يورك . هدى
الثانية أصبحت عميدة كلية الصحة العامة في الجامعة الأميركية و أستاذة إبنتي زينة
. في إدارة المستشفيات MSc في تحصيلها الجامعي التي حصلت بنهايته على

السيدة نجلا من بيت قرطاس في برمانا لبنان . كانت تؤمن بالبروتستنتية على مذهب
الذين أنشأوا مدرسة برمانا العالية . مارست إيمانها كلّ حياتها بالتزام و quakers ال
جدية . من الصعب أن يرتاح الشخص العادي عندما يمثل بين يدي مؤمن مبشّر .
المبشّر يتلو عليه دروسا بالصواب الذي يحلو له العيش فيه . إنّ الفكر التبشيري قد
يعطي صاحبه سمة مقتبسة تجعله يتوق للكرز في كلّ آن , و التواصل معه تنقصه
التلقائية . قلما يضحك من كلّ قلبه . لم تكن السيدة نجلا قرطاس هكذا لأنها ذكية .
كانت "أنتي" تفرقها عن اللواتي يستعملن "تانت" أو "عمّة" . الفرق بين التسميات
الثلاثة فرق حضارات ثلاثة متداخلة على إختلافها . كنا نعيشها كلّها معا نحن المتلقين

ليس سهلا أن تكون في صف التلقّي لأنه لا حول لك و لا قوّة في ما ينزل عليك . أنا
كنت مطواعا سهل التأقلم . أقبل الانتقال بسلاسة بين تانت أغني و عمّة قمر و أنتي
نجلا .

قسطنطين بك مفكّر سياسي عربي من الطراز الأول . في هذا السياق يمكن أن نضع
الكثير من فكر قسطنطين زريق و أمثاله من المسيحيين العرب الذين دأبوا أن يجدوا
مكانا لأنفسهم , و لنا نحن الأقليات الأثنية و الدينية , في خضمّ الأسلام النامي و
الواعي لأصالته و خصوصيته و قوّته , فخلقوا العروبة و القومية العربية .

سبقهم في نفس المحاولة أنطون سعادة حين رغب , أن يجد لنا مكانا فإقترح القومية
السورية , و نسجها على صورة أحزاب ما بعد الحرب الأولى في أوروبا , لكن متأخرا
. كانت الناس قد شاهدت سقوط الفاشية و النازية . إن أنطون سعادة على سموّ فكره
و مزاياه الشخصية و كثرة مريديه بين النخبة المثقفة الشابة , قدّم فكرا خارج وقته .

حتى توقيت عرضه لهذا الفكر لم يكن لصالح نجاحه . لم ينجح في جعل فكره يصمد أمام الإختبار العملي , الذي أدى الى إشعال فتنة في لبنان الطائفي , و بأنطون سعادة مع الأسف الى الموت برصاص السلطة .

حزب البعث و ميشيل عفلق قاموا بمحاولة نجحت و حكمت العراق و سوريا عقودا خمسة مع أنها لم تكن سلسة .

تبقى الحقيقة أن الإسلام و المسلم ليس بحاجة الى العروبة , كحاجتي أنا إليها . و عى زريق ذلك , و وجد في العروبة مخرجا يحفظ لنا المسيحيين مكاننا في بلادنا التي أصبحت بلادهم . لسوء طالعنا تفننت قياداتنا الروحية المتناحرة , في مقاومة فكر العروبة , خاصة في لبنان , و جعلنا هذا كل يوم أكثر عُربة في بيتنا . هذا عوض أن تعي خطورة القادم علينا جميعا . لا بل ساهمت على مدى العصور و بعمى منقطع النظر , في دفعنا الى الإنقراض و التمتحف . صار شعارهم لنا :

Love it or leave it

لم يخفف هذا الفكر العروبي من نزوحنا الى الهجرة بل زادها و يزيدنا كل حين و مع كل خضة . و ما أكثر الخضات .

هاجر "كوستي" جزئيا بانتقاله الى لبنان . لبنان هذا الذي بدا الى حين و كأنه أقل من سوريا إسلامية بالقوة . لقد أصبح بفعل أسباب متعددة كل يوم أكثر إسلامية . إنطلى الفكر العروبي على العرب فترة . ظهر رواد تاريخيون لهذا المذهب و في كل البلاد العربية . جمال عبد الناصر قائد الأمة العربية و رائدها , و غيره كثر قادوا أو إدعوا القيادة . أحمد بن بّلا , عبد الكريم قاسم و من تبعه من قادة العراق و البعث . معمر القذافي . جورج حبش و ياسر عرفات و اللائحة تطول . لست أدعي أن أسرد هنا منجزات التيارات العربية . هذا ليس مكانها و لا أنا أهل لذلك . لكننا عشناها و نعيشها . نعيش اليوم إضمحلالها و قرب موتها بعد أن صارت الأمور تسمى بما هو إسمها المنطقي .

السيد حسن نصر الله ليس بحاجة للعروبة ليسمعه و يموت الرجال إن شاء بجكته أن يأمرهم بذلك . مظهر ما يقومون به , نقيض ينقض العروبة و يظهر واضحا فشلها

في أن يموت المرء في سبيلها . يقدّم إسلاما مقاتلا عوضا عن تباكيها . إسلاما يعدّ و يفي . إسلاما أنجز في ساحة المجتمع كما في ساحة الوعي . إسلاما تفرح الأمهات إن تكلت و الأزواج إن تزلت و الأولاد إن تبيّمت . إسلاما إحترمه العدو أو كاد . مثله اللبناني على صغر حجم لبنان , عينة مُقنعة حتى لغلاة السنّة . هؤلاء السيّون جاوز منهم كُثُرٌ , كرههُ التاريخي للشّيعه , أمام واقع من الإنجازات يتكلم بما حقق . لم يقدم حزب الله شعارات ليس فيها مضمون يذكر و سئم الناس وعودها الخائبة و التي تتهم الغير على تقصيرها . قدّم هزيمة للعدو التاريخي تكلم و حلم و وعد بها غيره . حققها هو بدمه و لم يطلب من أحد الموت مكانه . طلب فقط أن دعوني (حلّوا عني) . لم يسمع الحريري و السنيورة و الأزام البتروليون طلبه . بل تأمروا و حاولوا إجهاضه , و وشوا بما عرفوا من أسرارهِ , التي سمح لهم بمعرفتها , و "كشفوه عنما إستطاعوا , و فشلوا رغم كلّ محاولاتهم , المدعومة من "الانغلي Langley .

لكن العالم لا ينام , و الخطر يكمن في أن ننام نحن بعد ما ربحنا معركة . عدونا لا يهدأ . يجب أن لا يباغتنا في نشوة الإنتصار . وسائل الرد عنده كثيرة وليست دائما محسوبة أو متوقّعة .

الوعي الحالي المبتعد عن نعمة العروبة هو بالفعل أكثر من ذلك بكثير . لقدّ وجد المتسائلون في الإبتعاد عن الإسلام تفسيراً لهزائمهم . و وجدوا في العودة اليه , الطريق الى الحلّ الذي ينشدون . قدّم الإسلام نفسه بديلا عن العروبة الفاشلة و كان ندائه أشمل و أجمع .

الأمر طبعا ليس بهذه البساطة . لا بد من النظر الى رد الفعل الذي يمثله مثل هذا المنحى في حياتنا , أكان على مستوى تأثيره على حياتنا الداخلية أو على علاقاتنا مع الغير . لا يمكن أن نعود اليوم الى تصنيف الكون في دارين : دار الإسلام حيث الأصدقاء و دار الحرب حيث الأعداء . هناك مثلي من لا يرغب في العود الى القرن السابع الميلادي . أليس مثل هذا العود ما توحيه اللحي و الجلابيب و الخمار . و لأننا لا نملك قرارنا , لا بد أن نحسب رد فعل الدول الأقوى التي قد ترى في أي تغيير , مساس في مصالحها البترولية و الأقتصادية الأخرى . قد يؤدي هذا الى إستعمار جديد بأسم نشر الديمقراطية . لقد حدث هذا بالفعل و لم يعد احتمالا فقط . العراق و ليبيا و تونس و مصر . هل سننجو من أكثر . معزوفة هذه على مسامعنا

جديدة قديمة . "كم جئت ليلى بأسباب ملفقة ما كان أكثر أسبابي و علّاتي" كما ينشد عبد الوهاب "قيس" لليلي في "سجى الليل" من مسرحية أحمد شوقي الغنائية .

أنا أعتقد أن ما يسمى ديمقراطية لا يفرض من الخارج , إنما يأت من خلال هضم و نضج و تعقل و تفاعل و إستيعاب داخليّ . من الممكن أن لا يؤدي بالضرورة الى القبول و التنبّي . أشعر في مسار حياتنا اليومية أننا لا نسير في طريقها المؤدّي . أنا على طبيعتي المتفائلة لست في هذا متفائلا و أتألم , لأنني لا أرى بذورا قد تتبرعم يوما , بل أشعر أن من يحثنا على الديمقراطية باللسان يدفعنا باليد في الإتجاه الآخر المعاكس . أما إذا وصل المتحون فالديمقراطية نشاذ على مسامعهم . نبقى نحن أهل القلّة ننفع متفرّجين لا حول لنا و لا مدفع . قد يكون وقت الحلول البطيئة التي إستخدموا ولى , و جاء وقت البطش الكشوف ليطشوا . لكن الغرب يتعلم أيضا . العراق و أفغانستان لم يكونان نزهة كما صورّ المخططون المروجون , الذين كذبوا و قرروا تصديق الكذبة .

هذا هو العالم منذ أن قابيل هاببلا . جشع و تنظير في الأخلاق أجوف . عند بريق الذهب يستحال و يحلّ كل شيء . للقوي الرأس و القشدة , و للضعيف أي نحن الباقون , فضلات المائدة . فبأي عين يتطلعون .

لسنا بحاجة لدروس و لم نطلب أساتذة لكنهم يفرضون . هل سيسمح لنا أن نعيش و لم نزاحم أحد على مكان أو لقمة . إنهم يريدون أفواها أقلّ , فاخترنا أفواها ليقبلوا منها , فياكلوا هم و يتخموا .